مقدمة

لحضرة صاحب السعادة الدكتور حافظ غفيفى باشا

رئيس وعضو مجلس إدارة بنك مصر المنتدب

طلب إلىّ الأستاذ على عبد العظيم المحامى أن أكتب كلمة عن « طلعت حرب » تصديراً لهذا الكتاب الذى وضعه بالاشتراك مع زميله الدكتور إبراهيم عبده تذكاراً لطلعت حرب . وقد تصفحت الكتاب فوجدته يحيط بجهود هذا المصرى العظيم فى هذا الحيز الضيق ويصورها جميعاً تصويراً صادقاً فى هذا الإطار الصغير . والعذر فى ذلك واضح . فإن شخصية « طلعت حرب » متعددة الجوانب . فهو مصرى عظيم فى الصف الأول من المحافظين وكاتب من الكتاب الواقعيين ومصلح بارّ بوطنه وزعيم ثورة اجتماعية واقتصادية خطيرة . وهو فى كلّ من هذه النواحى يمتاز باستقامة عالية وبروح قوى وإرادة عنيدة وهمّة غلاّبة بعيدة .

ولست أقصد فى هذه العجالة إلى تحليل شخصية صديقى الراحل الكريم . ففى استطاعة المؤرخين — إذا أرادوا — أن يفردوا كتاباً على حدة لكل ناحية من نواحيه . ولكنى أود أن أقرر هنا أن طلعت حرب كان أول مصرى وفق إلى إيجاد حل عملى منتج لعلاج مشكلة الفقر فى مصر وإلى رفع مستوى المعيشة لسواد المصريين .

فمن الحقائق الثابتة التى عرفها جميع المفكرين واتفقوا عليها من قديم

الزمان أن البلاد التي تعيش من الزراعة وحدها بلاد فقيرة وبخاصة تلك البلاد التي يزيد فيها عدد سكانها بنسبة أكبر من نسبة الزيادة في أراضيها الزراعية ولهذا فإن مستوى المعيشة في جميع هذه البلاد منخفض انخفاضاً ملموساً .

وقد ظلت مصر تعاني هذه الحالة بينها منذ بعيد فلفت «طلعت حرب» أنظار مواطنيه إلى هذه الحقيقة الثابتة المعروفة وإلى أن العلاج الوحيد لرفع مستوى المعيشة لسواد المصريين ولتخفيف أخطار الفاقة عنهم لا يكون بالاعتماد على الزراعة وحدها وأن الاستمرار على هذه الحالة سينتهي بلا شك عن مشكلة اجتماعية معقدة تنذر بشر مستطير ما لم يعمل المصريون على زيادة الإنتاج القومي وإيجاد عمل منتج لكل قادر من الرجال والنساء يدر أجراً مجزياً . وأن إيجاد العمل المجزي لا يتحقق إلا باستثمار كل ينابيع الثروة الأهلية من زراعية وصناعية ومعدنية .

وكان « طلعت حرب » يعلم أن المصريين متفقون معه على صحة هذه الآراء وسلامتها ولكنهم كانوا في الواقع مختلفين معه سراً أو علانية في مسألة إمكان تطبيقها في مصر إما لعدم اطمئنان كثرة أصحاب الأموال من المصريين إلى توظيف أموالهم في غير الزراعة أو لعدم خبرة المصريين أو عدم توفر المادة الأولية . أو عدم اتفاقهم على القيام بتأسيس شركات كبيرة مساهمة إما لضعف ثقتهم بأنفسهم أو لعدم إمكان تضامنهم في المشروعات المالية الكبرى أو لأسباب أخرى .

ولحسن حظ مصر ظلت فكرة « طلعت حرب » تغاديه وتراوحه ، فلم تبرح خياله ولم تذبل ولم تمت ، وظل يحملها في صدره حية نامية حتى تحين

لهذا الفرصة الملائمة فأقبل على تنفيذها عملياً بمعاونة القليل من الرفاق فى جرأة سببت وقتئذ كثيراً من الدهشة والقلق . فأنشأ فى سنة ١٩٢٠ مصرفاً صغيراً برأس مال صغير وبحفنة من الشبان المصريين . وزاد فى جرأته فجعل أعماله كلها باللغة العربية . فلم تلبث أن انقلبت دهشة الناس إعجاباً وتقديراً . وسبب ذلك راجع إلى أن « طلعت حرب » نفذ مشروع البنك ونجح فيه فى الوقت الذى كان كثير من الناس يائسين من النجاح كل اليأس . بل لقد نصحه كثيرون وقتئذ ألا يقامر هذه المقامرة الجريئة . ولكنه ضرب بكل ما لاقاه عرض الحائط وأثبت عملياً وبالدليل القاطع أن حجج اليائسين والمتمردين ضعيفة واهية لا تستند إلى أساس صحيح وأثبت أيضاً أن ما كان يلوح مستحيلاً فى نظر الكثيرين قد غدا ممكناً ومستطاعاً .

وتخطى بنك مصر العراقيل والصعوبات ونجح نجاحاً منقطع النظير وبلغ رأس ماله فى أمد قصير المليون جنيه . وهو اليوم يضم بين جوانحه عدة مئات من أبناء البلاد ويبسط ظله على حواضر القطر ويؤدى لمصر وبنيها ولجيراننا من بلاد الشرق الأدنى خدمات عظيمة جليلة الأثر .

وكان هذا النجاح السريع الباهر حافزاً لطلعت حرب على متابعة المسير فى طريقه لا يلوى على شىء ، ولا يبالى بما عثر فى هذا الطريق من شتى الصعوبات والعقبات من قومه وسواهم ، فأخذ على عاتقه مع رفاقه تنفيذ برنامج صناعى شامل ، ونجح فى ذلك أيضاً نجاحاً باهراً ، وقضى نهائيا على الفكرة التى ظلت دهراً طويلا تُلقى فى روع المصريين أن بلادهم لا تصلح للصناعة — فأسس منشآت عديدة مالية وصناعية ، وخاصة

في المحلة الكبرى وفي دمياط وكفر الدوار . وحسبه فخراً فيما عمله بمشروع شركة مصر للغزل والنسيج الذي يعتبر القيام به والنجاح فيه ثورة اجتماعية لما بعدها .

فإذا لم يكن في تاريخ « طلعت حرب » إلا أنه المصري الذي استطاع بأعماله العظيمة التي نجح فيها أن يعيد الثقة المفقودة بين المصريين بعضهم وبعض وإلا أنه افتتح الطريق وأقنع الكثيرون على مشعله أنه فيه منتصرا كما نجح وتهيأت البلاد بفضله وفضلهم ظلال الخير بعد الفقر والإحساس بالكبرياء الوطني بعد الشعور بالضعف والتبعة والهوان . إذا لم يكن لهذا المصري الجرىء إلا أنه فتح أبواب رزق واسعة لآلاف من الأسر المصرية وعمل على مستوى المعيشة للآلاف من المصريين بفضل الصناعات التي أسسها ونسج على منواله مصريون آخرون هنا وهناك وما يستتبع ذلك من تحسين في الصحة العامة وفي انتشار التعليم وفي نواح كثيرة أخرى بل إذا لم يكن لهذا الوطني العصامي إلا أنه أدى لبلاده ولمواطنيه واجبه بأمانة ونزاهة وإخلاص فحسبه وكفى .

أما بعد ففي الصفحات التالية جهد ملحوظ ينم على وفاء لرجل وقف حياته لخدمة الشباب لهذا الوطن وضرب لهم أروع الأمثال لخدمة بلادهم مصر الخالدة .

مصطفى صبحي